

قصص سناء الشعلان وتقنية الإستشراق

إضاءة سردية وتمظهرات تجريبية



١. د. سمير الخليل

في ضوء استقراء المجموعة القصصية (الذي سرق نجمة) للقاصة سناء الشعلان ، سأقف عند أبرز مظاهر التجريب التي تجلت واضحة في قصصها منها النهايات المفتوحة، والمفارقة التي تنطوي على السخرية والألم فضلاً عن الحالات الإيهامية، والركون إلى العوالم الصوفية، والالتكاء على تقنية السيرة القصصية وأخيراً اعتماد القاصة على تقنية الاستشراق للمستقبل من خلال عملية القص، وهو أمر تجاوز التقنيات التقليدية لاستشراق المستقبل مما هو متداول ومعروف .

نبدأ من العنوان العتبة (الذي سرق نجمة)، وهو عنوان إحدى القصص من باب إطلاق الجزء على الكل، فمن هذا (الذي) سرق نجمة !؟

ولماذا اختارت القاصة هذا العنوان من دون غيره من قصص المجموعة ؟

بنية العنوان تتكون من ثلاث مفردات (اسم موصول+ فعل ماضٍ+ مفعول به) فهو عنوان جملة موصولة لا يمكن التعامل معه بدقة إلا بقراءة

تعدّ القصة القصيرة من الأجناس النثرية المهمة في عصرنا الحاضر لانطوائها على أنساق تعبيرية مختلفة وهي ترصد معاناة الإنسان بأساليب فنية مكثفة، وتمتلك هويتها الفنية والتجنيسية الآن، فهي تمثل إبداعاً وتطوراً ملحوظاً في تصوير الواقع الاجتماعي والسياسي والحياتي عموماً .

تسعى القاصة (سناء الشعلان) إلى التجريب المقصود فنياً في أغلب كتاباتها القصصية، وقد يعود هذا الاهتمام إلى رغبتها في تجاوز الأطر التقليدية للقص، والبحث عن كل ما يتسم بالحدثنة لتكون أكثر ملائمة لروح العصر، فضلاً عما تملكه تقنيات التجريب الجديدة من شد انتباه المتلقي، وجذبه نحو الولوج إلى أعماق النص الأدبي؛ وهو ((قريب الإبداع؛ لأنه يتمثل في ابتكار طرائق وأساليب جديدة في أنماط التعبير الفني المختلفة، فهو جوهر الإبداع وحقيقته عندما يتجاوز المؤلف ويغامر في قلب المستقبل، مما يتطلب الشجاعة والمغامرة واستهداف المجهول...)).

التصور الإنساني الخاطئ لمعظم الأفراد الباحثين عن تحقيق أحلامهم عن طريق اللجوء إلى خارج بلدهم، في سياق عرض قصة الشخصية الرئيسة - أم آمال - التي اضطرتها الظروف القاسية إلى ممارسة البغاء في بلاد الغرب، بعدما أحببت رجلاً عاشت معه قصة حب صادقة تمخضت عن حملها، ومن ثمّ خوفها من سفك دمها من ذويها غسلاً للعار، مما اضطرها إلى اللجوء لحياة الغرب حيث الانفتاح وممارسة الحريات بغية تحقيق أحلامها بسعادة مع من تحب، غير أن سوء الحظ وبسبب تأخر حببيها في اللحاق بها ما جعلها تعيش حالة ضياع وتشتت تقول الراوية الشخصية بهذا الصدد: ((لأزمت البحر لأيام انتظر حضور رجلي، ولكنه لم يحضر، البعض قال إنه غرق مع الذين غرقوا في القارب الآخر الذي داهمته الرياح العاتية في البحر، البعض زعم أنه نجا مع الناجين الذين تعدهم الصليب الأحمر بالرعاية ثم أعادهم إلى المغرب قهر إرادتهم، وكيل العصابة التي نقلتنا في قاربها أكد لي أنه لم يركب البحر في تلك الليلة مع الراكبين، وأنه قفل عائداً من حيث أتى بعد أن انطلق قاربنا نحو مبنغاه، قالوا الكثير، وسمعت الكثير، والنتيجة كانت الانتظار الموصول لرجل لا أعرف أهو من خذلني أم أن البحر غرّ به، وابتلعه على حين غرة، ثم طواه في النسيان ليورثني سؤالاً لا يفتر ولا يموت، وهو: أين اختفى الرجل الذي أعشقه؟)).

جعل النص القصصي منفثاً على عدة احتمالات يثير تساؤلات عدة في ذهن القارئ لعل أهمها يكمن في أن ما لحق بالشخصية الرئيسة من أذى واضطهاد وانحراف لم تنحصر في تخلي حببيها عنها فحسب، بل أن العادات والتقاليد الاجتماعية القاسية القاتلة لإنسانية الإنسان هي من أسباب انحراف الشخصية المحورية ومأساتها وضياعها وتشتتها، والمرأة هي المتضرر الأكبر من هذه

القصة المرتبطة به، ولكنه يمكن أن يثير قراءات أخرى لا تمت بصلة لمضمون القصة المختارة، فالقاصة أرادت منه تلك الصياغة الشعرية ذات الدلالة السياسية والاجتماعية التي تتم عن مفارقة لاذعة حينما يدفع الإنسان حياته بسبب كذبة بيضاء أراد الشخصية منها إيهار زوجته بقدراته الخارقة وهو يخبرها أنه سرق نجمة من أجلها ليقدمها هدية بمناسبة عيد ميلاد زواجه، فإذا بالحاكم (السلطان) يطالبه بإعادة النجمة كونها ملك السلطنة أو الشعب أو الدولة ولا بدّ من إعادتها إلى الخزينة العامة وبعبكسه سيُعدم بسبب خيانتة العظمى، مع أن كل من يحيط بالحاكم وهو أولهم جملة سراق لقوت الشعب ولجهده ولثروته، فالجميع محمي بالفساد المستشري ولكن الرجل البسيط الذي لا يملك شيئاً سوى الكذب والتمني يدفع الثمن غالياً، ومن لم يطلع على القصة سيذهب ذهنه بعيداً إلى أن العنوان يحيل إلى مجازات شعرية وجماليات تلق ولكن استخدام اسم الموصول (الذي) يحيل إلى كل فرد بمفهومه العام أي كل من يصلح أن يكون اسماً موصولاً مشمولاً به غير أن الفعل (سرق) من الأفعال المرفوضة تداولياً وقيماً، فهو علامة سيميائية على أن الأمر فيه ثغرة أخلاقية ولو كان الفعل (أهدى) مثلاً لاختلف الأمر، ومع أن المفردتين (الذي سرق) لا تسموان إلى الشعرية وهما أقرب إلى التقريرية (النمطية) غير أن (المفعول به) قلب موازين العبارة وحولها إلى مجاز شعري وإيحاءات منفتحة نحو دلالات قرائية متعددة، فمن يستطيع أن (يسرق نجمة) بل من يصل إليها؟

ولعل في اختيار هذا العنوان العتبة ما يحيل إلى رغبة القاصة في إدانة الأنظمة الفاسدة والظالمة وإلى طيب الناس الذين يدفعون ثمن أحلامهم المتواضعة موتاً وتشريداً وقتلاً وظلماً.

ففي قصة (حيث البحر لا يصلح) تسلط الساردة الضوء على مسألة غاية في الأهمية ينكشف عبرها

يحبني دواراً جميلاً يكتب بأريجه الجبلي حدثاً كونياً فلكياً ووجودياً لقلب ينبض في اسمه أنت)). .
من ثمّ تحيل هذه القصة إلى هامش تقول فيه: ((له الخيال أن ينسج لقاءك ولا يمكن أن أقبل بإنكار الذاكرة لذلك، لأبد أنني قد قابلتك في زمن ما، وهذه قصة تصلح لهذا اللقاء)). .

حمل النص السابق مفارقةً إيهامية تجسدت في أن الهامش يقوض النص السردي؛ فبعد أن اقتعنتا الساردة بواقعية القصة نجدها في الهامش تستند إلى إحالات تخيلية ما أحدث إرباكاً ملداً في ذهن القارئ بعد أن وصل إلى مرحلة الاستغراق في واقعية الحكاية وصحتها .

أما في نصوص أخرى؛ فتعتمد القاصة إلى الإحالات الوهمية بعد أن تستهل النص بجمل توشي بأنها أسانيد دينية كما في قصة (منامات السهاد) بقولها: ((أفلح من نام، وتغس من استيقظ))، بعد ذلك تحيل هذه القصة إلى الهامش الآتي: ((ورد في أسفار المجربين والصالحين المهزومين: النوم باب من أبواب البركة المستجلبة، وهو مندوب مُستحب عند الخاصة والعامة، والاستيقاظ باب من أبواب المنقصة - والمعاذ بالله - وهو مكروه، وفي بعض الأسانيد هو حرام لا خلاف في حرمة. والمستبدون أعلم)). .

من الملاحظ في النص السابق أن عبارة ((أفلح من نام، وتغس من استيقظ)) تحمل مفارقة مؤسبة تثير إلى معنى معين يوحى بسخرية ناقدة حيال المجتمعات المستكنة المتخاذلة التي تغرق في مناماتها وتقف مكتوفة الأيدي حيال ظلم الأنظمة السياسية وبطشها، وإن ما يؤكد ذلك هو ما جاء في هامش الصفحة، إذ عزز من سخرية الواقع وأوحى بعدم صحتها، فهي سخرية تتطوي على نقد لاذع حيال المجتمعات الضعيفة التي لا تسجل موقفاً صلباً أمام الحكام المستبدين .

اللعبة ولاسيما في المجتمعات الشرقية التي تلقي بظلال سخطها عليها؛ فشخصية (أم آمال) هي أنموذج للمرأة العربية المضطهدة؛ التي لم ترتكب خطيئة متعمدة سوى أنها عاشت تجربة حب صادقة.

من هنا استطاعت القاصة أن تعري العادات والتقاليد الشرقية الموروثة التي يمارسها الأفراد من دون وعي بآثارها السلبية في المجتمعات ومن غير أن يلتفتوا أنّ الآثار الضارة ستعود عليهم بالخذلان .

لقد استطاعت القاصة أن تتقل قارئها إلى عوالم الشخصية الرئيسة وجعلتنا نعيش همومها وآلامها، فضلاً عن تحسس عمق مأساتها والاقترب منها عبر النص المنفتح على دلالات متعددة، وهذا ما أدى إلى ((النهائية النص، ولا محدودية المعنى، فضلاً عن تعدد الحقائق والعوالم بتعدد القراءات)). .

والنهايات المفتوحة ((تنتصر للنص القصصي؛ فهي تحمل القارئ مهمة الفعل وتحريك الحدث، والمساهمة في انفراج النص، وافتتاحه على كل التأويلات، ومن ثمّ انتزاعه من قارئ مستهلك للقولب التقليدي بخواتيمها الحاسمة إلى قارئ عارف وعالم منتج...)). .

ومما لا شك فيه أن القصة القصيرة نظراً لما تمتلكه من مساحة محدودة في الزمان والمكان والشخص فهي لا تحتل السرد المطول، وإنما تترك المجال إلى القارئ للمشاركة في انتاج النص ، وهذا ما يحقق فنية عالية للنص الأدبي، ويجعل المتلقي طرفاً في لعبة التأويل .

وفي نصوص أخرى تلجأ القاصة إلى تقنية الإحالات التناسية المتوهمة، إذ تحاول أن تقنعنا الراوية بواقعية قصة (الضياح في عيني رجل الجبل) التي تحكي حالة حب بين الشخصية الرئيسة ورجل الجبل بقولها: ((تحرصني الكتابة على كتابة الرجال والأحداث، ولكنك وحدك دون العالمين من

أجزاء الفرح التي تصنع روحه ووجوده ، والآن عليّ أن انتظر تحققها، وهذا ما سوف يكون، سأعيش أجمل ما يمكن أن يهدف البشر في حياتهم، سأعيش العشق)).

إنّ لجوء القاصة إلى تقنية الاستباقات الاستشرافية عبر هذه القصة أدت دوراً فاعلاً في خلق ديناميكية السرد، وجذب انتباه القارئ وتشويقه؛ ذلك لأنها تعتمد على حدى القراء بصورة ذكية غير مباشرة مما ساعد على تشويق القارئ ودفعه إلى الولوع في عوالم القصة وسبر أغوارها، فضلاً عما تمارسه الأجواء الغرائبية من تأثير أسر على نفس المتلقي، في سياق تحقق أحداث القصة التي تتسجها الشخصية الرئيسية - الفتاة- للشخص القصصية في ضوء اتكائها على الفانتازيا التي تعتمد على ((إطلاق سراح الخيال يرتع كيف شاء، بشرط تكون النتيجة فاتنة لخيال القراء)).

لم تقتصر الفكرة عند هذا الحد؛ بل تعدت ذلك إلى إيصال فكرة أخرى مفادها أن الإنسان يحيا بالكتابة الواعية التي تغير مجرى حياته بالشكل الصحيح؛ فالرغبة في كتابة القصة في النص أعلاه تقابلها الرغبة في خلق السعادة عن طريق الحب الذي هو أساس الحياة .

وفي موضع آخر من القصص نلاحظ ركون القاصة إلى العوالم الصوفية؛ فهي ممارسة إبداعية ليست بالجديدة على القصة القصيرة أو الأدب بصورة عامة، غير أن القاصة عرضتها بأسلوب جديد، ومشوق مما جعل قصتها ذات شعبية عالية هذا ما تجسد في قصة (راقصة الطاغية)، التي تغيب فيها الشخصية الرئيسية - الراقصة- في عوالم الصوفية روحانية من خلال الرقص الذي اكتسب صفة مقدسة لديها وليس شيئاً مبتدلاً كما هو معروف، فالراقصة ((تسمح بأن تستباح في أي شيء إلا في رقصها، لا شيء عندها يتصف بالقداسة إلا تلك اللحظات الهنية الشهية التي ترقص

الجدير بالذكر أن النص يقدم فكرة عن الواقع من دون أن ينقله بصورة ميكانيكية إذ ((لا يكتفي بتصوير الواقع أو الدلالة عليه حيثما يكون دالاً، فإنه يشارك في تحريك، وتحويل الواقع يمسه به في لحظة انغلاقه)).

وبهذا الشكل استطاعت القاصة أن تنقد قضايا المجتمعات بأسلوب فني تجريبي بعيد عن التقريرية والنمطية الفجة وتلك لعمرى قدرة لافتة .

لم يقتصر التجريب على ما سبق ذكره، بل نجد في قصة (جريمة كتابة) أن القاصة اتكأت على تقنية تجريبية جديدة في الزمن تجسدت في الاستشراف للمستقبل الذي يتم عادةً عبر الرسائل أو البرقيات أو قراءة الطالع، أما القاصة فنجدتها تنكئ على تقنية زمنية جديدة تجسدت في ما يمكن أن نسميه (الاستباق عن طريق القص)، فهي تنتبأ لابطالها في سياق نسج القصص الخيالية الفانتازية التي تمتزج مع الواقع الحياتي تجسد ذلك في الحوار الدرامي بين الشخصية الرئيسية - الفتاة- وطبيبها النفسي عندما سألها ((منذ متى تكتبين القصة؟

أجابت بسرعة وكأنها تنتظر هذا السؤال ويعدّ عدته لها: منذ ولدت، طوال عمري أكتب القصص، ولكنني حديثاً بت أعلن عن كتابتي لها كي أخلق حلمي، وأنا عاكفة على ذلك .

وما هو حلمك؟ سألها بصوت ثخين كأنه قادم من جوف تمثال .

-أن أخلق من أعشقه ! وأن أخلق للآخرين من يعشقونهم .

وكيف يكون ذلك ؟ سألها بنبرة مخابراتية تحقيقية .

-بالكلمات ، أنا أجيد أن أضع كل شيء من الكلمات ، والعشق أشد ما أجيد صناعته، لقد كتبت قصة عشقي الموعودة كاملة، رسمت رجلي الحلم، اخترت ملامحه كما اشتهي ، نظمت تفاصيل هذا الدفق العظيم من السعادة المنتظرة بقدمه، ركبت

تطلّ علينا القاصة في آخر مجموعتها بقصة سيرة تجريدية عنوانها (تقاسيم) تروي فيها الساردة العلمية حكايات عن الطفلة (سناء) التي صارت قاصة بأسلوب شائق ولغة مكثفة والتقاطات طفولية جميلة ونباهة تتم عن ذكاء حاد لدى الطفلة التي أسمت نفسها (سونة) نكاية بالجميع، وأجمل ما في تلك القصة مجموعة الحكايات البالغة (ست عشرة حكاية) والمرتبطة ترتيباً مونتاجياً باهراً ضمت مراحل حياة القاصة سيرياً بعيداً عن (ضمير الأنا) المتوافر في الرواية السيرية أو السيرة الذاتية الروائية، فما بين أيدينا قصة ذات إichاءات عن سيرة ذاتية بضمير الغائب لتشد المتلقي وتبعد شبح تمجيد الذات، وقد وقفت الساردة عند أهم محطات الطفولة في حياة القاصة ومجملها يبدأ بعبارة ((الطفلة الصغيرة)) مما استغرق اثنتي عشرة حكاية وأبقت ثلاث حكايات مكثفة عن تجربتها القصصية تبدأ من الحكاية الثالثة عشرة التي بدأت ((حكايته الجديدة أنها خلعت جسد الطفلة ولبست جسد المرأة كل شيء غدا فيها أكبر، إلا عينها...))، ولعل في وقوفها عند حكاية سردها القصصي ما يشي بأن تلك الموهبة لم تكن وليدة اللحظة ولا ثقافة القراءة، إنما هي موهبة إلهية انبعثت من لحظة ولادتها وهي تقلب عينها فيمن حولها، بقي أن نشير إلى أن كتابة السيرة عن طريق القصة القصيرة يحتاج إلى قدم ثابتة وقدرة هائلة في تكتيف الأحداث والمواقف واللغة وقد أجادت القاصة في ذلك أيما إجادة وهي تكتب عن سيرتها في عشر صفحات فقط وبلغة تجريد ضمير (الأنا) تذكرنا بأيام طه حسين وهو مجرد من ذاته ضميراً آخر يتمتع القارئ ويستثير فيه جمال الأداء، ولهذا عددت ذلك شيئاً من رؤية تجريبية موفقة في مجموعتها القصصية المهمة والدالة على رومانسية (تداولية) ذات مفارقة في عنوانها (الذي سرق نجمة).

فيها جسدها عندئذ يحار في حركات علوية متصلة مع عالم روحي لا يعرف لحظة حزن أو خذلان أو مذلة أو تواطؤ إلا مع موسيقى خفيضة تخضعه بحنان غنج سرعان ما يرخي قبضته المتشبهة بها ليجري مرحاً نحو رياض وزهور ونشوة لا تنقضي تظل تتلوى كجنبة في باطن كف عفريت عاشق لها، ويظل من حولها من حضور يتحرقون في سعار فتنتها ووهج شبقها... ثم تنقطع الموسيقى وتنتهد بعمق، وكأنها استيقظت من دروشة صوفية فجرية ندية، تغادر حلبة الرقص كحصان بري فتي يجري دون تعب...)).

من الملاحظ أن الموسيقى تملك تأثيراً طاغياً على الشخصية الرئيسية؛ فهي تنقلها إلى عوالم صوفية خيالية تجعلها تنوب في عالم روحاني جميل يعكس تأثيره الساحر على ذاتها ويتجسد بالحركات الممشوقة التي تسرق قلوب من يشاهدها، ونظراً لما تحمله الراقصة من عشق وقديسية لمهنتها، فقد استطاعت بذلك أن تؤثر على جميع من حولها بالشكل الذي يصبح مقدار تأثيرها على جمهورها موازياً لما تحمله من حب وعشق واحترام لمهنتها؛ وهذا ما يتضح جلياً في تأثيرها الخارق في الحاكم المتماذي في ظلمه وجوره وسحبته إلى عوالمها الصوفية التي يجسدها النص الآتي: ((أما هو فلا يزال مريضاً في قصره، تغزوه حمى مجهولة السبب، ويغلبه ضعف سري يعطله حتى عن أحلامه التوسعية لا طبيب يعرف له علة، ولا دواء يعرف له شفاء، ولا صديق يملك له دعاء مستجاباً شافياً، وهي تنتظر دون توقف أمراً لا يكون)).

الجدير بالذكر أن هذا التأثير الصوفي الذي جرى في شخصية الحاكم الطاغية لا يتحقق إلا للنفس المؤثرة التي يمتلئ قلبها وروحها وجوارحها بالعشق الإلهي فتفيض به على الموجودات ويكون تأثيرها أشد وأعظم.